

سيطرة آراء سيبويه : مقال في شرعية العنوان . ظهر استعمال لفظ (السيطرة) في عدد من أعمال اللسانيين العرب 1- المعاصرين تدليلا على صحة إطلاقه في البحوث اللغوية من دون شبهة مجافاة العلمية، ولو احتمالاً وهذا مثالان معاصران دالان على هذا الاستعمال : أولهما - سطوة القافية : أثر القافية في التطور الصوتي (2003م) . و ثانيهما - سطوة الشهرة على آراء الباحثين في اللسانيات العربية (2008م) (2) ومن تأمل ما أورداه فيما يتضح أن المقصود من استعمالهما هو السلطة التي ملكتها آراء سيبويه في الصوتيات ابتداء، ثم فرضتها على من جاء بعده من العلماء الصوتيين العرب على امتداد التاريخ. إن فحص الامتداد الذي حققه منجذبات سيبويه في الصوتيات العربية يكشف عن استقرار هذه الآراء لممثل مؤسسة وكياناً يشبه أن يكون بناء سلطانياً على حد تعبير الدكتور عبد السلام المسدي (3) سطوة آراء سيبويه في الصوتيات العربية على من جاء بعده إذن قوة قاهرة لم يستطع أحد من الصوتيين العرب أن يفر من سلطتها وهيمنته لاعتبارات معرفية في المقام الأول. ومن هنا فإن استعمال لفظ السطوة مراجعاً في دلالته لألفاظ السلطة أو الطغيان أو القهر جاء استعملاً حقيقياً لا شبهة للمجاز أو للمبالغة فيه، ولا سيما في سياق وروده في أعمال لسانية معاصرة. 2 كثافة الاستشهاد بما هي معيار لقياس سطوة آراء سيبويه مدخل) و قياس وزن هذا التقدير. وهذا المعيار المستعار من بنية علم المعلومات والمكتبات (5) صالح هنا في ولسنا بدعاً في استعمال هذا المعيار صموداً إلى تقدير وزن عالم من العلماء فقد سبق توظيفه لقياس الأثر الذي أحده عدد من العلماء المعاصرين وهو ما يمكن أن يمثل مدخلاً يبيح لنا ما صنعناه هنا. في مجال تقدير ما حققه العالم الدكتور أحمد زويل كان توظيف هذا المعيار سبيلاً لفحص هذا التقدير، يقول في كتابه : رحلة عبر الزمن . الطريق إلى نobel : " وعقب الإعلان عن جائزة نobel أعلن معهد المعلومات العلمية بفيلاً دلفياً والذي يقوم بعمل إحصائيات تبين أهمية الأبحاث المنشورة استناداً إلى تكرارية الإشارة إليها، واستخدامها كمراجعة أو حاشية في الأبحاث المناظرة ، والذي يعد دليلاً على أهمية البحث، ومدى تأثيرها في مجالها أعلن هذا المعهد أن الفيتو كيمياء قد ورد وهو المعيار الذي لجأ إليه واحد من المعاهد العلمية العربية - كما جاء في النقل - لتقدير الأثر العلمي الذي حققه إنجاز أحمد زويل في العلم المعاصر عن طريق تتبع الاقتباسات التي تناولت معه في أشكالها المختلفة. وفي ميدان علم اللغة أو اللسانيات تم اللجوء إلى استعمال المعيار نفسه في تقدير الوزن الذي حازه اللغوي المعاصر نوعاً تشومسكي ، تشومسكي الآن واحداً من الكتاب العشرة الأول الذين يكثر الاستشهاد بهم في الدراسات الإنسانية ، وهو يتقدم على هيجل وشيشرون ولا يسبقه إلا ماركس ولينين وشكسبير وإنجيل الحي من أفراد هذه المجموعة" (6) وأرسسطو وأفلاطون وفرويد - وهو الوحيد الحي من أفراد هذه المجموعة " (6) صحيح أن القائمة المختبر تكرارية الاستشهاد بها كلها غربي - وهو ما يكشف عن الخضوع لما يسمى بمركزية العقل الأوروبي لكنه أمر دال على الوزن والتقدير الذي يحوزه نوعاً تشومسكي على الأقل في بنية الثقافة الغربية المعاصرة. وهو الأمر الذي عاد وآلح عليه اللغوي العربي المعاصر الدكتور حمزة بن قبلان المزبني عندما قال إن "تشومسكي من أكثر من يستشهد به في العلوم المختلفة" : فقد استشهد به فيما بين 1980 م و 1992 م أربعة الآف مرة في العلوم الإنسانية و 1619 مرة فيما يسمى بالعلوم الصحيحة" (7) ويستعمل الدكتور مصطفى صفوان وهو واحد من أعظم المحللين النفسيين المعاصرين المقاييس نفسه في تقدير قيمة الفيلسوف الأوروبي المعاصر : دافيد هيوم ، فيقرر قائلاً (ص 64 ) في كتابه ( الكلام أو الموت اللغة بما هي نظام اجتماعي دراسة تحليلية نفسية ) : "يعتبر كيلاسون أن دافيد هيوم هو أكبر ختمت به العبارة السابقة. من مجموع هذه الأمثلة يظهر لنا أن استعمال معيار كثافة الاستشهاد أو تكراريته أمر مستقر في تقدير وزن ما حققه الأعلام من العلماء في الميادين وهو ما لجأنا إليه هنا لإثبات إمامته سيبويه في ميدان الصوتيات المختلفة العربية من منظور شكلي ظاهري أولاً. وسوف نتوقف في رصد هذه التكرارية الاستشهادية بأرائه على امتداد التصنيف في الصوتيات العربية والدوائر المتصلة والقريبة منها منذ القديم إلى العصر الحديث ، وفق ما يلى : الاستشهاد المرجعي بسيبوه في مصنفات الصوتيات العربية قديماً حيث يمثل ظهور سيبويه بما هو نص مرجعي متسرب في الأدبيات الصوتية العربية الخالفة دليلاً على ما سميـناه بـسطوة آرائه ، و في هذا المطلب سنكشف عن تغفل المـنـجـزـ المـعـرـفـيـ المـتـعـلـقـ بـالـصـوـتـيـاتـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الـكـتـابـ لـسيـبـويـهـ فـيـ الـمـصـنـفـاتـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ ظـهـرـتـ بـعـدـ وـفـقـ التـقـسـيمـ التـالـيـ : 1/2 الاستشهاد المرجعي بأراء سيبويه في أدبيات الصوتيات العربية التراثية. في هذا الجزء من هذا المطلب يظهر أن آراء سيبويه ظهرت في المصنفات العربية التي عالجت الصوتيات العربية على مستويات مختلفة، من عد المخارج وتقسيمهـ. وصفاتها، ومعانـىـ مـصـطـلـحـاتـ هـذـهـ الصـفـاتـ مـاـ يـسـمـىـ بـالـجـهـاـزـ الـاـصـطـلـاحـيـ لـعـلـمـ الصـوـتـيـاتـ كـمـاـ جـاءـ عـنـدـ سـيـبـويـهـ . 1/2 ]ـ فـيـ مـصـنـفـاتـ الـأـصـوـاتـ الـخـالـصـةـ الـمـخـتـصـرـةـ وـأـوـلـ مـاـ يـقـابـلـنـاـ مـنـ الـأـدـبـيـاتـ الـصـوـتـيـاتـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ خـلـصـتـ لـمـعـالـجـةـ الـأـصـوـاتـ الـعـرـبـيـةـ وـفـقـ الـمـسـتـوـيـاتـ السـابـقـةـ -ـ كـتـابـ أـبـيـ الـأـصـبـغـ السـمـانـيـ الـإـشـبـلـيـ الـمـعـرـفـ بـاـبـنـ الطـحـانـ الـمـتـوـفـىـ سـنـةـ 560ـ،ـ حـيـثـ ظـهـرـتـ آرـاءـ

سيبويه معتمدة في كتابه مخارج الحروف و صفاتها كما يلى : عد الحروف (الأصوات ) على تسعه وعشرين : ١ في ابن الطحان ص 79 س ١ = في سيبويه ح ٤ ص 431 / س ١٣ ب موافقة ابن الطحان لما ورد عند سيبويه في تقسيم بعض المخارج ، ولما ورد فيها من أصوات . في ابن الطحان ص 80 س ٢-١ مخرج أقصى الحلق (ء / ألف / ه) = وفي سيبويه ج ٤ / ص 433 / س ٢٤ ، ومخرج وسط الحلق (ع / ح) في ابن الطحان ص 80 / س ٢ = وفي سيبويه ج ٤ / ص 433 / س ٥ ، ومخرج أدنى الحلق في ابن الطحان ص 80 / س ٣ ) و يسميه مخرج مما يلى الفم ( غ / خ ) = وفي سيبويه 433/4 س ٥ ج - موافقة ابن الطحان لما ورد عند سيبويه فيما يتعلق بتقسيم المخارج وإن اختلف عده بما ورد من عد سيبويه فهي أى المخارج في ابن الطحان خمسة عشر مخرجا ، موزعة كما يلى : ٣ مخارج للحلق / ١٠ مخارج للسان، ومخرجان للشفتين - المجموع ١٥ مخرجا ، وهو ذات الترتيب عند سيبويه وإن زاد عند سيبويه مخرج يكمل العدة ستة عشر مخرجا وهو مخرج الخياشيم. د ظهور سطوة سيبويه ظهورا واضحأ على ابن الطحان في جانب تعريفات المصطلحات الصوتية بشكل يكاد يكون حرفيا ومن الأمثلة الدالة على ما تقرره ما يلى : أ - تعريف ابن الطحان مصطلح الهمس ص 93 / س ٣ بأنه : " ضعف الاعتماد في المخرج ؛ المهموس : " حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه ! ب تعريف ابن الطحان مصطلح الجهر ص 93/س ٤ بنص ما في سيبويه ج ٤ / ص 434 / س ٧-٨ ج تعريف ابن الطحان مصطلح الشدة ص 93/س ٥-٦ بنص متضمن لقيود سيبويه ج ٤ / ص 234 / س ١٦ د تطابق تعريف ابن الطحان مصطلح الرخواة ص 93 س ٧-٨ كما في سيبويه ج ٤ / ص 435 / س ٢ وإذا كان ابن الطحان اعتمد كتاب سيبويه مع اختلاف يسير في عد المخارج من كتابه ( الدر المرصوف في وصف مخارج الحروف ) ( ص 25 / س 13 قائلاً: " اعلم أن غير تصريح باسمه ، فإن أبا المعالى الموصلى المتوفى سنة ٦٢١ه افتتح العلماء اختلفوا في عدد مخارج الحروف (الأصوات) فذهب سيبويه في جماعة من النحويين إلى أن للحروف ستة عشر مخرجا " وهو ما في سيبويه، ثم واصل في عدها والكلام عليها، وعلى صفاتها ، وهو ما فطن إليه الدكتور غانم قدوري الحمد في تحقيقه لكتاب ، حيث يقرر في الحاشية (3) من الصفحة (28) قائلاً: إن تعريف المهموس والمجهور هنا أى عند الموصلى مقتبس من تعريف سيبويه ! وقد أطلنا في بيان علامات تأثير سيبويه في اثنين من مصنفات الصوتيات العربية التراثية المختصرة الخالصة لمسائلها ؛ لندرك على طبيعة الاستشهاد المرجعي الذي حظيت به المادة العلمية المعالجة لعلم الصوتيات العربية عند سيبويه من تقدير و القى وجدت طريقها لأدبيات هذا العلم المختصرة به عند من جاء بعده ، وخلفه لتجلى في صورة اقتباس حرفى على مستوى بعض المخارج وتقسيماتها وصفاتها ، فضلا عن مستوى اقتباس تعريفات المصطلحات هذا العلم التي حدها هذا الرائد العظيم. ١/١/٢ أب في مصنفات الأصوات الخالصة المطولة وأهم الكتب المطولة التي فرغت الدراسة الأصوات العربية في التراث اللغوى كتاب أبي الفتح عثمان ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ الذي عنوانه ( سر صناعة إلإعراب). وقد استوعب ابن جنى فيه تقريرآراء سيبويه الصوتية ، وظهر في تعقيبه على الاستشهاد منه ترجيحه لهذه الآراء في أحيان كثيرة . وفيما يلى بيان بموضع استشهاد ابن جنى بآراء سيبويه في هذا المجال في ٤٥/١ نقل في بيان ترتيب الأصوات من الحلق إلى الشفتين شاهدا له بالصحة = وهو في سيبويه 433/4. في ١ ٤٦ س ١٦-١٧ مناقشة لبعض الآراء المخالفة لسيبويه لتقسيم بعض مخارج الحلق ، وتصحيحه رأى سيبويه واعتمداته ورد آراء غيره = وهو في ٤٣١/٤-٤٣٣ سيبويه - في ٤٩/١ س ١٦ نقل و شرح لمعنى بين بين ، وهو شكل من أشكال نطق الهمزة وهو في سيبويه ٣/٥٤١. وفي ٥٨/١ س ٥ دفاع عما فهم خطأ عن سيبويه في بعض مسائل الإدغام = وهو في سيبويه ٤٥٠/٤ فيما يتعلق بدعوى إدغام الهاء في الحاء. وفي ٧٤/١ س ٨ نقل في الوقف بقلب الألف همزة = وهو في سيبويه ٢/٢٨٥. وفيما يلى نورد أمثلة كثيرة لاستشهادات ابن جنى بآراء سيبويه في المسائل الصوتية : إشارة إليها ؛ لكثرتها : ٧٩/١ ٣ س ٣ (إمالة) و ٨٤ س ٧ إيدال) ٢١٩ س ١ (إدغام) و ٥١٩ س ١٣ ٥٩٠/٢٩ س ١ (إيدال) و ٥٦٩ س ١٢ (إيدال و ٧٠١ س ٧٠١ (إيدال) : (وقف) وهو استشهاد سبق منه وروده ؛ و ٧٨٠ س ٤ (وقف) : ٧٩٢ س ٤ (إيدال)، ١/٢ ب في مصنفات التجويد و إذا كان كتاب ابن الطحان المتوفى بعد ٥٦٠ من المصنفات النادرة التي خلصت لمعالجة مسائل الصوتيات العربية من غير ارتباط منصوص عليه من جانبه بالأداء القرآني ، أو ما يسمى في الاصطلاح العلمي بعلم التجويد - فإن التراث العربي عرف عددا لا يأس به من المصنفات الصوتية التي عنيت بدراسة المسائل الصوتية العربية تخلصا إلى العناية بالتجويد ؛ أي بهدف خدمة القرآن الكريم أدائيا. و فيما يلى متابعة لسطوة آراء سيبويه على آراء الصوتيين العرب الذين جاءوا بعده من خلال فحص عدد من مصنفthem في علم التجويد سيبويه بتقسيمه وعده وترتيبه ( ص 51). وفي كتابه اختلاف القراء في اللام والنون عند خوضه في مسألة إظهار النون وإن يصرح بـ النقل عنه؛ حيث فسر سبب الإظهار عندها؛ وفي سيبويه ( 454/4 س 12) تفسير لهذا الإظهار - بعبارة : "أن هذه الستة

( وهي أصوات الحلق : ء / ح / ع / خ ) تباعدت عن مخرج النون وليس من قبيلها". و في كتاب الموضع في التجويد لعبد الوهاب بن محمد القرطبي المتوفى سنة 461 نقول كثيرة ومطولة من سيبويه كما يلى : - نقل في ص 9/73 س 9 جاء به للتفريق بين الإشمام والروم وهو في الكتاب 168-4/169 صحيح أن النقل خاص بعلامات الظاهرتين الصوتتين خطيا ، وهى النقطة بعد الحرف للإشمام ، لكن ذلك جاء لخدمة الظاهرة الصوتية ؛ أي أنه لا يصح الادعاء بأن هذا النقل غير خاص بالعلم الصوتي . نقل في ص 77 / س 6 نصا يعلن فيه اعتماده كلام سيبويه الخاص بتحقيق نوات الأصوات ومخارجها، وبيان أجناسها، ومقصوده من نوات الأصوات وبيان كيفية إنتاجها، يقول : " أما تحقيق نواتها أى الأصوات وذكر مخارجها وتبيين أجناسها، وذكر مراتبها فى الاطراد، فنذكرها على ما ذكره سيبويه رضى الله عنه " . وهو الموجود في سيبويه (431/4) وقد استمرت مناقشة القرطبي اإيجابية لما اعتمد من كلام سيبويه حتى بلغت الصفة (93). : وصفها نقل في ص 129 / س 13 نصا يتعلق بتعريف الإدغام، وفسره = وهو في سيبويه 137/4 والإدغام ظاهرة صوتية هي المماثلة الصوتية نقل في ص 171 / س 8 نصا يتعلق بتعليق إخفاء النون مع الأصوات الفموية على حد تعبيره ؛ و يقصد بها أصوات المخارج من الله آة إلى الشفتين = وهو في و في ص 208 / س 7 نقل خاص ببيان فارق ما بين الروم والإشمام = وهو في سيبويه 4/168 وما بعدها. ومثل هذه السلطة التي رأيناها مهيمنة على بناء كتابي السعديي، نجدها في ) تجويد القراءة ومخارج الحروف ( لابن وثيق الأندلسي المتوفى كتاب سنة 645 ، حيث اعتمد ما عند سيبويه من عد المخارج، وتقسيماتها، وصفاتها وتعريف مصطلحات هذه الصفات على ما نرى في الصفحات التالية : ص 63 / س 13 عدد الأصوات إجمالا. موزعة في 16 مخرجا على ثلاثة أقسام كبرى. ص 69 / س 2 والصفحات التالية لها : حيث تحدث عن صفات الأصوات بتعريف سيبويه لها . و تستمر علامات تكرارية الاستشهاد بكلام سيبويه بما هي علامة مرصودة لقياس سطوة آرائه على من جاء بعده من علماء الصوتيات العربية ، في فروع علم التجويد ، فتتجلى هذه العلامة عند واحد من أشهر علماء التجويد العرب كافة هو ابن الجزري المتوفى سنة 833 في كتابه التمهيد في علم التجويد ) ، حيث تكرر اعتماد كلام سيبويه ، والاستشهاد به ، في الموضع التالية : في ص 113 / س 2 وما بعدها نقل عن سيبويه يتعلق بعد المخارج وحصرها في 16 مخرجا، وعلى الرغم من ذكره عد العلماء المختلفين للمخارج؛